

العبادة.. لماذا وكيف؟



جاء في القرآن العظيم (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّةَ وَالإِنْسَنَ إِلَّا لِيَعْبُدُونَ) (الذاريات/ 56)، وجاء أيضاً: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَزْهَرَ إِلَّاهَ إِلَّا أَزَّا فَيَأْبُدُونَ) (الأنبياء/ 25)، وفي سورة يس: (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَسَّارَ بَنْدِي أَدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِلَّاهَ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَأَنْ أَعْبُدُ وَرَبِّي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ) (يس/ 61-60)، وهناك العديد من الآيات والأحاديث التي تذكر اصطلاح "عبادة" هل ان عبادة يعني ذلك..؟ هل ان عبادة تعني ما تعارف عليه بعض الناس..؟ ان البعض عندما يستعمل اصطلاح عبادة ويسمع بهذا الاصطلاح فإن ذهنه ينصرف إلى الصلاة والصوم والحج فقط وهذا لا يتماشى مع المفهوم الإسلامي ل العبادة. فعند مراجعة نصوص القرآن والسنة نجد أن عبادة ان غسلها على طريق طاعة ومنها ومن أبرزها الصلاة والصوم والحج وتسوع كل نشاطات الإنسان السائرة على طريق طاعة وانت هنا وانت العابد المخلص والمطهى أن يتعرف على مطلوب المعبود ومراده وتشريعه لشؤون الحياة ليكون عمله وفق ما يريد المعبود والزكاة.

إن الإنسان إذا لم يعبد الله فإنه سيعبد غيره سواء كان هذا الغير صنماً أم بمراً أم هو النفس وفي هذه العبوديات المتعددة يمكن مقتل الإنسان واحتطافه وذاته وهو انه بينما هو عندما يتجه إلى طاعة ربه وعبادته وحده فإنه سيعيش حياة العزة والكرامة والاستعلاء على الإلهة المزيفة يقول أمير المؤمنين علي (ع): "إلهي كفى بي عزاءً أن أكون لك عبداً وكفى بي فخراً أن تكون لي رباً، أنت كما أحب فاجعلني كما تحب"، ويقول ولده الحسن (ع): "من أراد عزاءً بلا عشيرة وهيبة بلا سلطان فليخرج من ذل معصية الله إلى عز طاعته عز وجل". إن النتيجة الحتمية والثمرة الطبيعية للعبادة المخلصة للوجود الحق هي الحياة العزيزة الكريمة المهيضة إلا أن ذلك لا يتم بين ليلة وضحاها ذلك إن عبادة الله إذا أكانت تعنى طاعة الله في كل شأن من الشؤون فإن هذا يعني أن على العابد المخلص المطهى أن يتعرف على مطلوب المعبود ومراده وتشريعه لشؤون الحياة ليكون عمله وفق ما يريد المعبود الحق منه.

إن مختلف العبادات التي شرعاها العليم الخبير إنما شرعاها بشكل سليم غريزة التدين المتصلة في الوجود الإنساني. إن هذه الغريزة لا تقل قوة عن غريزة الأكل والشرب والجنس ولا بد أن تشبع غريزة الدين كما تشبه هذه الغرائز سواء بسواء. وغريزة الأكل مثلاً تشبع بالأكل ولا يمكن أن يعوض عنها تخيل الأكل أو أن تشبع بإشباع غريزة غير غريزة الأكل وهكذا الأمر بالنسبة إلى غريزة الدين فهي لا تشبع بالأكل أو الشرب أو الجنس، بل لا بد من العبادات فهي الغذاء المناسب الذي ينسجم معها. فلكل غريزة من الغرائز إذن ما يناسبها من الطعام (فأَقِمْ وَجْهَكَ لِلَّهِ يَنْهَا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ اللَّهَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ

الدِّينُ الْقَيْمُ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) (الروم/ 30)، وإذا كان الدين غريزة كما هو الواقع وكما أكد ذلك كبار العلماء من كل أنحاء الدنيا وكان أداء كل لرسالتها وتحقيق الحكمة من وجودها يتوقف على طريقة إشباعها، فمن الطبيعي أن يهتم الإسلام بوصفه النظام القيم على الإنسانية وغراائزها وسلوكها بتنظيم هذه الغريزة، غريزة الدين وتحديد محتواها الحقيقي وتعيين الأساليب الصحيحة في إشباعها، والمحتوى الحقيقي لغريزة الدين في نظر الإسلام هو شعور الإنسان بالارتباط بخالق حكيم قادر عادل عالم حديـر بالعبادة والحب والتقدیس لأنـه واحد كلـ كمال ومنبع كلـ رحمة.. وإنـما يقر الإسلام إشباع غريزة الدين بالشكل الذي يعبر تعبيـراً مـادـقاً عن مـحتواها الحقيقي ويـركـز في نفس الإنسان صـلـته الروحـية بـخـالـقه ويـجـعـله يـسـتـشـعـر بـهـذه الـصـلـة ويـسـتوـجـيـ منها ويـعـتمـدـ عـلـيـهاـ فيـ سـرـاءـهـ وـضـرـاءـهـ وـيـسـتمـدـ منـهاـ قـوـةـ الإـرـادـةـ وـخـلـوصـ النـيـةـ وـطـهـارـةـ الرـوـحـ.

والصوم باعتباره عبادة من العبادات جاءت لإشباع غريزة الدين في الإنسان وهو يعبر في تشريعه عن جانبيـنـ منـ حاجـاتـ الإـنـسـانـ الرـئـيـسـةـ فهوـ تـعـبـيرـ عنـ حاجـةـ الإـنـسـانـ لـلـانـقـطـاعـ ولوـ لـفـتـرـةـ مـحـدـودـةـ وأـيـّـامـ مـعـدـودـةـ عنـ مـتـطـلـبـاتـ الـجـسـدـ منـ أـكـلـ وـشـرـبـ وـجـنـسـ وـالـانـغـلـاقـ دونـ هـذـهـ الـحـاجـاتـ وـإـلـاحـاجـاـ المـتـزاـيدـ وـضـغـطـهـاـ الـمـسـتـمـرـ.

وفي نفس الوقت يعتبر الصوم تعبيـراً عن حاجـةـ الإـنـسـانـ لـلـانـفـتـاحـ عـلـىـ التـطـلـعـاتـ الـرـوـحـيـةـ وـالـتـرـفـعـ عـنـ مـسـتـوـيـ الـضـرـورـاتـ الـجـسـدـيـةـ وـالـاسـتـعـلـاءـ عـلـيـهـاـ،ـ وـذـلـكـ بـإـشـبـاعـ الـمـتـطـلـبـاتـ الـرـوـحـيـةـ وـالـتـرـفـعـ بـعـضـ الـوقـتـ لـمـدةـ شـهـرـ لـتـطـلـعـاتـ الـنـفـسـ وـحـاجـاتـهـاـ وـلـهـذاـ بـعـدـ الصـومـ نـشـاطـاـ سـلـبـياـ وـإـيجـابـياـ فـيـ وـقـتـ وـاحـدـ يـسـتـهـدـفـ مـصـلـحةـ الإـنـسـانـ،ـ وـذـلـكـ بـتـعـبـيـدـهـ لـخـالـقهـ وـتـحرـيرـهـ مـاـ سـوـاهـ،ـ انـ الصـائـمـ بـصـيـامـهـ يـعـبـرـ عـنـ اـنـتـصـارـ إـرـادـةـ إـلـىـ رـغـبـتـهـ وـإـرـادـتـهـ وـفـيـ هـذـاـ اـنـتـصـارـ تـحـقـقـ أـبـرـزـ صـفـاتـ إـلـيـمـانـ وـهـيـ تـقـدـيمـ إـرـادـةـ العـبـيدـ يـقـولـ الـقـرـآنـ الـعـظـيمـ:ـ (وـمـاـ كـانـ لـمـؤـمـنـ وـلـمـؤـمـنـةـ إـذـا قـهـىـ اللـهـ،ـ وـرـسـوـلـهـ أـمـرـاـ أـنـ يـكـونـ لـهـمـ الـخـيـرـةـ مـنـ أـمـرـهـ)ـ (الأـحزـابـ/ـ36ـ)ـ إنـ هـذـاـ اـنـتـقـالـ مـنـ حـبـ الذـاتـ وـالـتـعـلـقـ بـلـذـائـذـهـاـ وـشـهـوـاتـهـاـ إـلـىـ حـبـ إـلـهـ وـالـتـعـلـقـ بـهـ يـجـعـلـ أـرـوـعـ آـثـارـ التـغـيـرـ وـالـتـحـولـ الـنـفـسـيـ وـالـرـوـحـيـ دـاخـلـ كـيـانـ الصـائـمـ،ـ الـتـغـيـرـ الـذـيـ يـجـعـلـ لـهـ الـارـتـباطـ بـإـلـهـ وـالـتـوـجـهـ إـلـيـهـ وـالـتـقـرـبـ مـنـهـ وـالـنـظـرـ إـلـىـ كـلـ شـيـءـ فـيـ الـحـيـاةـ مـنـ خـلـالـ هـذـهـ الـعـلـاقـةـ الـمـكـيـنـةـ مـعـ إـلـهـ فـيـتـحـقـقـ بـذـلـكـ إـصـلاحـ الـنـفـسـ وـتـقوـيمـ السـلـوكـ وـتـرـبـيـةـ الـمـشـاعـرـ وـلـمـ كـانـ الدـعـاءـ يـسـاـهـمـ فـيـ تـحـقـيقـ الـارـتـباطـ الـوـدـيـ الـحـبـيـبـ بـيـنـ الـعـبـدـ وـالـمـعـبـودـ كـانـ فـيـ الصـمـيمـ مـنـ الـعـبـادـةـ وـلـهـذاـ جـاءـتـ آـيـةـ الدـعـاءـ (وـإـذـا سـأـلـكـ عـبـادـيـ عـنـنـيـ فـإـنـنـيـ قـرـيـبـ أـجـيبـ دـعـوـةـ الدـاعـ إـذـا دـعـانـ فـلـيـسـتـجـبـيـوـاـ لـيـ وـلـيـقـوـمـنـدـوـاـ بـيـ لـعـلـلـهـمـ بـرـشـدـونـ)ـ (الـبـيـقـرـةـ/ـ186ـ)،ـ جـاءـتـ هـذـهـ آـيـةـ الـمـبـارـكـةـ خـلـالـ آـيـاتـ الصـومـ الـمـبـارـكـاتـ وـفـيـ أـثـنـائـهـاـ وـهـوـ أـمـرـ يـدـلـ عـلـىـ مـدـىـ عـلـاقـةـ الدـعـاءـ بـالـصـومـ كـعـبـادـةـ خـاصـةـ وـمـدـىـ عـلـاقـتـهـ بـالـعـبـادـةـ عـمـومـاـ وـلـهـذاـ جـاءـ فـيـ الـحـدـيـثـ طـاعـةـ إـلـهـ وـمـرـضـاـتـهـ فـوزـ وـسـعـادـةـ..ـ►

إنـ الصـومـ الـعـبـادـةـ الـذـيـ يـرـيدـهـاـ مـنـاـ إـلـهـ وـالـتـيـ تـؤـتـيـ أـكـلـهـاـ وـتـحـقـقـ أـغـرـاضـهـاـ فـيـ الـعـبـادـةـ الـتـيـ كـانـ يـمـارـسـهـاـ مـحـمـدـ (صـ)ـ وـعـلـيـ(عـ)ـ وـطـلـابـهـاـ الـمـخـلـصـونـ الـعـبـادـةـ الـتـيـ يـجـمـعـ صـاحـبـهـاـ بـيـنـ الـدـنـيـاـ وـالـآخـرـةـ وـبـيـنـ حـقـوقـ الـنـفـسـ وـالـآخـرـينـ.ـ الـعـبـادـةـ الـتـيـ تـزـيلـ الـفـيـارـ عنـ قـلـوبـ الـعـبـادـ الـمـخـلـصـينـ لـرـبـهـمـ حـتـىـ لـمـ يـجـدـواـ غـيـرـهـ فـيـهـاـ.ـ انـهـاـ عـبـادـةـ الـأـحـرـارـ الـتـيـ أـشـارـ إـلـيـهـاـ عـبـدـ إـلـهـ أـمـيرـ الـمـخـلـصـ الـإـمـامـ أـمـيرـ الـمـؤـمـنـينـ شـهـيدـ الـمـحـرـابـ بـقـولـهـ:ـ "إـلـهـيـ مـاـ عـبـدـتـكـ إـذـ عـبـدـتـكـ خـوـفاـ مـنـ نـارـكـ وـلـاـ طـمـعاـ فـيـ جـنـتـكـ وـلـكـنـيـ رـأـيـتـكـ أـهـلاـ لـلـعـبـادـةـ فـعـبـدـتـكـ"ـ هـذـهـ الـعـبـادـةـ الـمـخـلـصـةـ الـصـادـقـةـ عـبـادـةـ الـأـحـرـارـ الـتـيـ جـعـلـتـ الـذـائـبـ فـيـ ذـاتـ إـلـهـ وـهـوـ يـتـلـقـيـ الـضـرـبةـ الـطـائـشـةـ الـمـنـكـرـةـ الـفـادـرـةـ فـيـ مـحـرـابـهـ يـقـولـ:ـ "فـزـتـ وـرـبـ الـكـعـبـةـ"ـ،ـ لـأـنـ الـمـوـتـ فـيـ سـبـيلـ إـلـهـ وـعـلـىـ طـرـيقـ طـاعـةـ إـلـهـ وـمـرـضـاـتـهـ فـوزـ وـسـعـادـةـ..ـ►